بين القدرة
والعظمة

زبدة الصفحات التالية أن رأس الدولة الأموية كان رجلا قديراً ولكنه لم يكن بالرجل العظيم.

والفرق بين القدرة والعظمة يوضحه الاصطلاح ولا توضحه المعجمات اللغوية هذا التوضيح الذى نعنيه. فقد يقال عن العظيم أنه قدير ويقال عن القدير أنه عظيم، ولا يخطئ القائل من الوجهة اللغوية فى هذا الترادف المقبول ما لم يقيده الاصطلاح.

إنما الاصطلاح الذى نعنيه وننظر فيه إلى أحوال الطباع أن القدرة غير العظمة فى أشياء.

فربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والإضرار بغيره، ولكنه إذا وصف بالعظمة فإنما يوصف بها لف ل يقاس بالمقاييس الإنسانية العامة، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه.

ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح إذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة إلى التقدير والتعظيم.

فنحن نقدر الإنسان بمقداره عظيمًا كان أو غير عظيم، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية، ولكننا إذا عظمنا الإنسان فإنما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق إكبارنا ويرتفع إلى المكانة التى تلحظها الإنسانية بأسرها وتعود غليها فى منافعها وخيراتها.

فكل عظيم قدير.

ولكن ليس كل قدير بالعظيم.

والعظمة قدرة وزيادة.

أما القـدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة فضـلا عن أن تكون عظمة زيادة.

ومعاوية قدير ولا ريب.

أما أنه عظيم فـذلك الذى نعرض له فى الصفـحات التاليـة لنبين فيـها الفـارق بين القـدرة والعظمـة، فى ترجمـة رجل من أنفع الرجـال النابهـين لتوضيح هذا الفارق بميزان الحوادث وميزان الأخلاق.

ومن سرف القـول أن يقال أن معـاوية لم يكن يعمل بباعث من الغـيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبع فى الأخلاق.

فليس فى وسعـه أن يتجرد من هذه البـواعث لو أراد، وليس فى وسع رجل أسلم على يد النبى عليـه السلام وصـاحبه وعـمل على أيدى الجلة من صحابتـه أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه وواجـبات المروءة يف عرف زمنه.

إلا أننا، مع العلم بغيـرته الدينية فى شعوره وفعـاله، نستطيع أن نعلل جميع أعماله بعلة المصلحة "الذاتية" أو مصلحة الأسرة والعشيرة.

ونستطيع أن نعمم القـول بغير استثناء عن كل مسعى من مـساعيه وكل حيلة من حـيله وكل مآثرة من مآثره، فنقـول أن المصلحة الذاتية أو مـصلحة الأسرة والعشيرة كـافية لتعليلها والقيام بهـا، وأنه لم يعارض المصلحة الذاتية بإرادته فى حين واحد، وعـارض المصلحة العامة فى أحيان كـان رجلا قديراً ولكنه لم يكن بالرجل العظيم.

ومهمة المؤرخ فى سيرته أن يقدر قدرته وأن يعـرف ما اقتدر عليه بسعيه وتدبيره ما اقتدر عليه بمساعدة الزمن ومماألأة الحوادث والمصادفات.

وهذه المهمة تتقضانا "أولا" أن نجمل القـول فى جميع التمهيدات التى ما مكنتـه من الاقتدار عل مـقاصده، ومنهـا ما كان سـابقًا للإسلام وسـابقًا لمولده، ومنها ما كان مقترنًا بحياتـه أو معاصرًا له فى حياته، ومنها ما تم قبل ملكه وما تم فى أثناء ملكه إلى ما بعد موته.

وتتقاضانا هذه المهمة "ثانيًا" أن نزن المواهب العقلية والخلقية التى اشتهر بها وأسند إليها ما أسند من أسباب نجاحه.

فنبدأ الكلام فى الفصول التـالية بالتمهيدات التاريخـية من قبل الإسلام إلى قيـام الدولة الأموية، ثم نتلوها بتحليل الأخـلاق والمواهب التى تعد من وسائل نجاحه.

ونلاحظ فى ذلك كله أن "نقدر القدرة" التى تثـبت لهذا الرجل القدير من وراء المدائح والأهاجى ووراء الدعاية له والدعاية عليه.

ونحسب أننا وفينا لهذه الأمانة إذا انتـهينا من هذه الصفحات إلى الوزن الصحيح الذى يوزن به رأى الدولة الأموية ويوزن به غيره من أعلام التاريخ.

***